رؤى تربوية

مركز القطان للبحث والتطوير التربوي
مؤسسة عبد المحسن القطان
العدد السابع عشر – أيار ٢٠٠٥

دورية تصدر أربع مرات سنوياً عن
مركز القطان للبحث والتطوير التربوي
رام الله – فلسطين

مفتتح

وسيم الكردي

(١)

ما بين ألم وأمل... وخيال أيضاً!

كنت قد شرعت في كتابة افتتاحية لهذا العدد حول التعلم والخيال، ولم تكن هذه الافتتاحية قد اكتملت، وقد قررت استكمالها في صباح اليوم التالي. في صباح اليوم التالي فتحتُ بريديَ الإلكتروني، واستقبلت رسالة من الزميل عبد الرحمن أبو شمَّالة الذي يحمل عبء المراجعة اللغوية لهذه المجلة "رؤى تربوية". كانت الرسالةُ أولَ رسالة أفتحها، وكانت بلا كلمات، ولكنَّ ملفاً أرفَق بها، فتحت الملف، وإذ بي أمام قصيدة لشاعر تشيلي الكبير بابلو نيرودا، القصيدة مغناة بصوت كورالي، وفي خلفية كلمات الأغنية صورٌ لجليد وثلوج وبيوت وغابات، وترافق الأغنية موسيقى تنهض بالقلب، وتصعد به إلى أفق جديد، تبدو الشمس متسللة من وراء الأشجار نحو جبال الثلج، وتبدو آثار خطى على الثلج كخطوات بكر ... . لقد بثّتْ الرسالةُ فيَّ مزاجاً مختلفاً تماماً عن مزاج كنت فيه قبل ذلك، حينها قلت لنفسي كم هذه القصيدة مناسبة لشحن الروح بالأمل وبث التفاؤل، في زمن كم نحن أحوج فيه إلى تفاؤل وأمل. فوضعت الافتتاحية السابقة غير المنجزة جانباً، ورأيتني أترجم القصيدة، وإذ بها تحل محل هذا المفتتح الذي كنت قد شرعت به أصلاً. تقول القصيدة:

سيأخذك الموت ببطء
إنْ لم تسافرْ وإذا لم تقرأ
إنْ لم تنصت لأصوات الحياة
وإذا لم تقدِّر ذاتك

سيأخذك الموت ببطء
إذا قتلتَ ثقتك بنفسك
إذا لم تدع الآخرين يساعدونك
سيأخذك الموت ببطء
إذا غدوت عبداً لطبائعك
فتخطو في الطرق نفسها
إذا لم تغيِّر روتين حياتك
إذا لم تكتس ألواناً مختلفة
إذا لم تتكلم مع أولئك الذين لا تعرفهم

سيأخذك الموت ببطء
إذا تجنبتَ الإحساس بالولع
والانفعالات المضطرمة التي تجعل عينيك متلألئتين
وتفضي إلى تسارع نبضات قلبك

سيأخذك الموت ببطء
إذا لم تغير حياتك حينما لا تكون راضياً عن عملك أو
طريقة عيشك
إن لم تخاطر بما هو آمن من أجل ما هو مشكوك فيه
إن لم تجر وراء حلم
إن لم تسمح لنفسك، على الأقل مرة واحدة في العمر،
بأن تركض بعيداً عن نصيحة محسوسة

ابدأْ بالحياة اليوم
غامر اليوم
افعل شيئاً ما اليوم
لا تسمح لنفسك بأن تشرع في الموت ببطء
لا تنس أن تكونَ فرحاً

***

يبدو النص بعد القراءة الأولى، وكأنه نص تبشيري، يبّشر بالفرح؛ فهو نص معبأ بالنصائح، وسيبدو في ظاهره عكس ما يبطنه في ثناياها، لماذا تترك كلمات بسيطة وشبه عادية ومألوفة أثراً عميقاً في النفس؟ لماذا ينقلب المزاج من وضعية إلى وضعية أخرى نقيضة بسبب نص وصور وموسيقى وكلمات؟ لماذا

في هذا العدد

- **ملف العدد (وقائع المؤتمر التربوي):**
  - أيُّ تربية نريد لأطفالنا؟ ٥
  - نظرة أخرى للرؤية البحثية ٩
  - رعاية تعليم التفكير للأطفال ١١
  - مراعاة أنماط التعليم في التدريس ١٥
  - الذكاء العاطفي ٢٠
  - اليوم الأول: نقاش وحوار ٢٣
  - نحو بيداغوجية مدرسية متكاملة ٢٦
  - السرد كسياق لإنتاج المعنى ٣٣
  - الاستكشاف والتعبير.. عند تخوم الخيال أو ما بعدها ٣٩
  - الورش التطبيقية ٤٧
  - معرض الساعة والزمن ٥٠
  - انطباعات مشاركين حول المؤتمر ٥٢
  - أنماط تعلمية مختلفة في تدريس العلوم الاجتماعية ٥٤
  - في مجال تدريس اللغة العربية ٦٠
  - توظيف الدراما في تدريس اللغة العربية ٦١
  - تحليل سيميائي لنص "سباق العقبان والنسور" ٦٢
  - تجربتي في توظيف الدراما في تدريس اللغة العربية ٦٦
  - في مجال تدريس العلوم ٦٧
  - تطبيقات الرياضيات ٦٩
- **تجربتي مع مركز القطان (خواطر معلمة)** ٧٢
- **أدب الأطفال والتربية الإبداعية** ٧٣
- **حكاية معلم الفن المجنون** ٧٩
- **منتدى الحوار التربوي في إذنا** ٨١
- **مكاملة الذكاء العاطفي بالمهارات الإكاديمية** ٨٥
- **الحكاية: جغرافية المعنى وترحال الخيال (قراءة نقدية)** ٨٨
- **معلمون ومسرحيون يستكشفون هياكل مغايرة للمسرح والدراما** ٩١

تربوية

دورية تصدر أربع مرات سنوياً
عن مركز القطان للبحث
والتطوير التربوي
رام الله-فلسطين

المحرر المسؤول:
د. فؤاد المغربي

مدير التحرير:
وسيم الكردي

سكرتير التحرير:
عبد الرحمن أبو شمّالة

هيئة التحرير:
مالك الريماوي
نادر وهبة
وائل كشك
ليانا جابر
مها قرعان
دعاء جبر
سكاي مكلاغن
عطية العمري
فوزي أبو عودة
محمد أبو ملوح
ناي شومر
محمود الحمضيات
مها برزق

الآراء الواردة في المقالات تعبر عن آراء
أصحابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي
مؤسسة عبد المحسن القطان

للاستفسار والمراسلة

رام الله-مركز القطان للبحث
والتطوير التربوي، ص.ب. ٢٢٧٦
هاتف: ٢/٢٩٦٣٢٨١ ٢ ٩٧٢+
فاكس: ٢٩٦٣٢٨٣ ٢ ٩٧٢+
rua@qattanfoundation.org

يبث نص كهذا روحاً جديدة تفضي إلى إنتاج في العمل أقل ما يمكن القول فيه أنه مضاعَف عن اليومي العادي المألوف؟ لماذا قررت أن يكون مكان افتتاحية أخرى مخطط لها؟ ربما لأنني ارتأيت في تلك اللحظة بأن هذه الروح التي بثها هي كل ما نحتاجه في بلادنا هذه الأيام، نحن بحاجة إلى خلخلة التشاؤم والإحباط، وإلى فكفكة ما نكاد نسلّم به كواقع "نرتضيه" فنستسيغه، ويغدو هو الواقع الذي علينا أن نقبله كما لو أنه قدر نهائي. ربما ارتأيت إثبات القصيدة لأنني أعرف شاعرها، وأعلم بعضاً من مجريات حياته، لقد أحالني النص إلى صاحبه، إلى الشاعر الذي كان يغني الحب والفرح والمقاومة في بلاده، حين كانت ترزح تحت نير الديكتاتورية وأظافر الكولونيالية التي كانت تنغرس في لحم بلاده وأهلها. لقد قضّى الشاعر جل حياته ناشداً الحرية، يغنيها لشعبه ولأجنحته. كان هذا الغناء يتصاعد مع كل قصيدة، وكلما بات الوضع أكثر ضراوة كان عود الغناء يشتد أكثر فأكثر، عاشت تشيلي ظروفاً أقل ما يمكن أن يقال عنها إنها في منتهى القسوة، ظروفاً قد تخلق الإحباط وتبعث على التشاؤم... ولكن القصيدة تأتي من بين كل هذا الجحيم ... وتحمل دفقاً من الأمل، وفورة من الحب، وشعلة من التحدي، ورغبة في الانطلاق والبحث عن التغيير.

أما اليوم، وفي زمن بعيد عن الشاعر وزمنه، فإن بينوشيه الديكتاتور مطلوب للمحاكمة، وما زالت أمهات المقتولين والمفقودين تقف في الميادين الرئيسية داعية العدالة أن تأخذ مجراها. ربما لم يكن ممكناً لخيال في ذلك الزمن أن يتصور أن هذا اليوم سيأتي! ولكن خيال الشاعر كان حاضراً في ذلك الزمن كما يحضر الآن. ربما هذا هو ما علينا أن نتعلمه ونربيه فينا، ونعلمه ونربيه في تلامذتنا أيضاً، ربما هذا سيكون المحك الفعلي لدورنا ولدور المجتمع بما في ذلك دور المدرسة التي ارتضت لنفسها أن تنأى بنفسها بعيداً عن الحياة في معظم الأوقات، وتمنطق التعليم في نطاق من الأسوار التي تزنر المدرسة كما تزنر الروح والعقل، وأكثر من ذلك تخنق الخيال.

أثبت هذا النص هنا لأقول "لنا" إن هذا العالم يجب أن يتغير، وأن حياتنا يجب أن تتبدل، وأن ما نحن فيه من سيطرة قوى عظمى بأسلحتها وتكنولوجيتها ليست أقوى من إنسان باحث عن حريته، ومتطلع إلى فضاءات أكثر إنسانية. إذن، لنفتح أفقاً للخيال؛ فالتمنطق والعقلنة في صورهما الراهنة قد لا يبعثان فينا سوى مزيد من التشاؤم والإيغال في التسليم. ولكن حين ندرك بأن "ثقافتنا ومهاراتنا ليست هي التي تجعل منا بشراً؛ بل إنه الخيال الذي يكوِّن إنسانيتنا"[1] أن نكون بشراً يعني أن نتخيل، وأن نتخيل يعني أن نعرف حياتنا، وندرك كنهها، ونكتشف تعقيداتها. فنحن لا نستطيع التحرك في أفق التغيير دون أن ندرك واقعنا، أن ندركه بمشاعرنا وفكرنا وخيالنا. إن إدراك هذا الواقع يقتضي منا تشغيل المخيلة، المخيلة الأخرى المبدعة، المخيلة المؤنسنة، وليست تلك المخيلة التي تبدع فقط في إنتاج وسائط السحق والتدمير من أجل أن تحيا الاحتكارات التي تتيحها "العولمة"، وتنتجها "العنصرية".

وإذا لم نكن نحن الذين نعمل مع الصغار من يستطيع بث روح الخيال ودفقة الأمل في أطفالنا، فمن يستطيع ذلك؟! وعلى الأقل، وإذا لم نكن قادرين على فتح فضاء الخيال لأطفالنا، فعلينا أن لا نعلي أسواراً فينا تحجبنا وتحتجزنا عن أجمل ما فينا كما يُعلي الآخر جداراً يظن من خلاله بأنه سيحجب عنا ضوء الشمس، ويمنع عنا الأفق! إن جداراً كهذا يمكن له أن يتهشم تماماً إذا هشمنا جدراناً تسور أرواحنا وعقولنا وخيالاتنا! أن نهشم أسوار التطويع والامتثال والتآلف مع ما يتعارض مع إنسانيتنا! فهل يمكن للتربية أن تحثنا على فعل ذلك؟ يعني أن نتخيل كيف يمكن لهذا العالم أن يكون مختلفاً ومغايراً لما هو عليه؟! ربما فقط إذا اقتنعنا بما يقوله أينشتاين بأن "الخيال أهم من المعرفة"، أو بما يقوله ابن رشد في مجال حديثه عن متلقي الشعر: "الذين لا يصدقون بالأمور البرهانية إذا لم يصحبها التخيل".

أثبت هذا النص هنا لأقول "لنا" إن هذا العالم يجب أن يتغير، وأن حياتنا يجب أن تتبدل، وأن ما نحن فيه من سيطرة قوى عظمى بأسلحتها وتكنولوجيتها ليست أقوى من إنسان باحث عن حريته، ومتطلع إلى فضاءات أكثر إنسانية.

(٢)
قوة قطاع المعلمين الافتراضية ... غائبة!

قبل صدور هذا العدد كان المعلمون في فلسطين قد أضربوا عن العمل، وقد نشرت الصحف بعد ذلك أن مطالبهم قد لبيتْ من قبل السلطة الوطنية الفلسطينية، وقد يكون ذلك صحيحاً وقد يكون مماطلة جديدة، وإذا كان صحيحاً فلن يتعدى تلبية الفتات، وسيعود المعلمون مرة أخرى للإضراب أو التخطيط له! ويبدو أن الإضرابات التي نُفِّذت سابقاً والتي تنفذ حالياً والتي قد تنفذ في المستقبل ليست مبنية ضمن إستراتيجية احتجاج ومطالبة عميقة، بل تبدو ارتجالية أو "فشة خلق" في أحسن أحوالها. إن مطالبة المعلمين في فلسطين بحقوقهم ينبغي أن تقوم على تصور دقيق ومرسوم، وأن تنبني خطواته واحدة تلو الأخرى لتحقق تراكماً فعلياً يفضي إلى تحقيق الغايات والمقاصد التي يتطلع إليها المعلمون. إن إضراباً مرتجلاً يؤول به المطاف إلى انكساره أو كسره سيفضي إلى تعميق حالة اللاجدوى، ويُفقدْ المعلمين الحماسة للقيام بخطوات احتجاجية أخرى في المرات القادمة. وهذا لا يعني أن على كل إضراب أن ينجح! ولكن بالمقابل، فهذا لا يعني أن على كل إضراب أن يفشل!

ليس هناك مجال لأي كان بأن يشك أو يراوغ في أن الظروف

جانب من إضراب المعلمين واعتصامهم أمام مقر المجلس التشريعي في رام الله يوم ٢٧ نيسان الماضي. عدسة: جمال العاروري

الاقتصادية التي يحياها المعلمون في فلسطين، وبخاصة معلمي المدارس الحكومية، هي الأقسى والأصعب، ويندر أن نجد وضعاً يشابهها في أية بقعة من بقاع الأرض، فرواتبهم متدنية، وعلاواتهم ضعيفة، وحوافز العمل تكاد تكون منعدمة أو ضئيلة. إن أبسط ما يعرفه أي منا هو أننا لا نستطيع أن نؤدي أدوارنا في حدودها القصوى إذا كنا واقعين تحت ضغوط سياسية واجتماعية واقتصادية وإدارية هائلة. نحن نعرف جميعاً أن المعلمين في بلادنا، وعلى الرغم من كل ذلك، يضعون جهداً هائلاً في مدارسهم، ولا يتوانون لحظة عن تقديم ما يمكنهم تقديمه، ولكنهم في نهاية المطاف يقابَلون بإهمال، ويتم التعامل معهم كأرقام تؤدي عملاً روتينياً ليس مهماً فحواه أو مضامينه وأشكاله، بل المهم أداء الوظيفة كما هي مرسومة في صورتها الناجزة والتقليدية، ولذلك نجد أن كثيراً منهم لا يشتغلون على تطوير أدائهم، أو يتذمرون إذا ما أجبروا عليه.

فكيف يمكن لمعلم أن يعطي إذا ما كان في ضائقة اقتصادية حادة؟! وإذا كان الهم الحياتي ضاغطاً عليه طوال الوقت؟! كيف يمكن للتعليم أن يشتغل على فتح فضاءات التحرر من سطوة القهر والظلم الذي يعاني منه المجتمع جراء الاحتلال، وجراء الهيمنة السلطوية، وجراء التخلف الاجتماعي؟!

إذا كان المعلمون أسرى للنظام التربوي الذي يحشرهم في وظائفهم في صورتها المغلقة، وإذا كان المعلمون يتعرضون للمهانة الاجتماعية، وإذا كان المعلمون يواجَهون بالجحود والإنكار يومياً، وإذا كان المعلمون راضخين وغير قادرين على التعبير عن همومهم والمطالبة بحقوقهم خوفاً على الوظيفة ومصدر الرزق– فكيف يمكن لهم أن يرسموا الكرامة، ويبثوا الكبرياء فيمن يعلمونهم إذا كانت كرامتهم وكبرياؤهم يتمرغان في وحل الواقع الاقتصادي والاجتماعي الخانق؟! إن ما يقع على المعلم سيقع في النتيجة أيضاً على التلاميذ، وسيكون المجتمع أمام خسارتين؛ خسارة قطاع هائل من المعلمين الذين لن يسهموا، جوهرياً، في التغيير السياسي والاجتماعي لبلدهم. والخسارة الثانية أنهم سيدفعون بالتلاميذ في النتيجة لكي يكونوا مستضعفين لا يعني لهم سؤال الحرية كثيراً، ولا يعني لهم الانشغال بقضايا مجتمعاتهم شيئاً.

إن قوة المعلمين الهائلة والغائبة في الوقت نفسه، هي جوهر ما في الأمر، وأي تغيير حقيقي لن يكون وليد الشفقة أو الرأفة أو حتى المسؤولية الأخلاقية، بل سيكون وليد قوة المعلمين في تحقيق حياة كريمة. المشكلة في بلادنا بأنه لا تأثير للمعلمين يوازي ثقلهم الافتراضي على مستوى تحقيق مكاسب فعلية للمعلمين، سواء أكان ذلك فيما يتعلق بالحقوق الأساسية أم فيما يتعلق برواتبهم واستحقاقاتهم وامتيازاتهم في سلك وظيفي تدرجي! فانتظام المعلمين النقابي كقوة لها وزنها في المجتمع الفلسطيني يكاد يكون غائباً، مع أن لهم نقابات واتحادات وروابط، فلم يتمكن أي جسم نقابي لهم، وإلى يومنا هذا، من توظيف هذه القوة الاجتماعية على تنوعها واختلافها، إلا في مواقف قليلة، جلها في زمن الاحتلال المباشر، لتغدو قوة مؤثرة، حقيقية وقادرة على المساهمة في صياغة تحولات مجتمعية أساسية، سواء أكان ذلك على مستوى فحوى التعليم وأشكاله أم على مستوى الحياة الاقتصادية أم على مستوى الفاعلية المجتمعية. قد يكون هذا الكلام كلاماً خاوياً إذا ما استكنا لنظرية لها وزنها في علم الاجتماع التربوي تتمثل في أن المدرسة ضمن النظام التربوي الذي تقع في إساره، هي ليست سوى مكان للتدجين ... وبأن هامش الحرية أو التحرر لا مكان له البتة فيها! فهل هذا كلام في العدم؟! ربما.

الهوامش:

[1] إدوارد بوند.